

WERNER ENDE

Banu Ummaiya fi mir'at al-mu'allifin al-'arab
al_mu'asirin

Ara' wa-munaqasat haula daur al-umawiyin fi 't-tarih al-islami wa'l-
'arabi

بنو أمية في مرآة المؤلفين العرب المعاصرين : آراء ومناقشات حول دور الأمويين في التاريخ الاسلامي والعربي قيرنر اينده

تقوم هذه المقالة أساساً على مبدأ أن كل المؤلفات التاريخية هي مرآة تنعكس عليها الأحوال الاجتماعية والبيئة الثقافية للعصر الذي كتبت فيه . وبهذا المعنى يقول العالم الإيطالي بنديتو كروتشه (Benedetto Croce) « إن التاريخ كله تاريخ معاصر » . ويعني العالم الإيطالي بذلك أن التاريخ يقوم أساساً على رؤية الماضي بمنظار الحاضر وفي ضوء مشكلات العصر ، وليس التسجيل هو العمل الرئيسي الذي يقوم به المؤرخ ، بل إن عمله الرئيسي هو تقدير القضايا ووزن الأشياء والحكم على الأمور . لذلك فإن فهم أي تاريخ يتطلب منا فهم المؤرخ من نواحيه المتعددة : اتجاهاته ونظراته للحقائق وثقافته والبيئة التي يعيش فيها . وأرى أن هذه المقدمة تصلح لكل نوع من أنواع كتابة التاريخ أيّاً كانت لغة هذا المؤلف أو حضارته أو البيئة المحيطة به أو العصر الذي يعيش فيه ؛ ومن ذلك نستنتج أن كتابة التاريخ عند العرب هي ككتابة أي تاريخ آخر : مادة قابلة للتحليل ، وأي تحليل لكتابة التاريخ عند العرب هو إسهام في بحث الحركات الفكرية عندهم بوجه عام .

وسوف نحاول في هذه المقالة تحليل ما تعرّض له الكتّاب والمؤرخون العرب في القرن العشرين بالكتابة عن تاريخ الدولة الأموية في الشام ، بدءاً من الفتنة الكبرى التي قُتل فيها الخليفة عثمان بن عفان وحتى سقوط الدولة الأموية على أيدي العباسيين . ونظراً لضيق المكان فلن أتعرض هنا لما كتُب عن الحكم الأموي في الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية في الشرق .

وقد أصبح من الواضح بعد هذا التمهيد أن هذه المقالة لا تهدف الى تحليل وجهة النظر القديمة تجاه هذا الموضوع — كما تعرّضها المصادر الكلاسيكية — بل، إلى تحليل وجهة نظر الحركة الفكرية الحديثة عند العرب في وقتنا الحاضر . وقد اخترنا موضوع الدولة الأموية من بين الموضوعات التاريخية العديدة التي عالجها الكتّاب والمؤرخون العرب في العصر الحديث لأسباب مختلفة ، من أهمها أن الدولة الأموية كانت دولة عربية محضة بمعنى أن السلطة العليا فيها كانت بيد العرب . وقد حققت الدولة الأموية انتصارات كبيرة في جميع الميادين ، وكونت دولة كبرى ما زالت تُدّ هس عظمتها العالم حتى الآن . وطبقاً لهذه الحقيقة فإن العرب في وقتنا الحاضر ، ومع نشوء فكرة القومية العربية ، قد أخذوا يتطلعون من جديد إلى إعادة تحقيق هذه الدولة التي كانت في يوم ما حقيقة واقعة . وإذا كان العرب في القرن العشرين يتحدثون عن مشكلات تعرّض لتحقيق وحدتهم وأمانهم ، فمن الطبيعي أن يبحثوا عن المشكلات المناظرة التي كانت قد اعترضت الدولة الأموية وعن طريقة حلّها لهذه المشكلات ، ومن ذلك مشكلة الموالي ، وبُشبهها في الوقت الحالي مشكلة الأقليات المسلمة التي تتكلم لغات أخرى غير العربية والتي تعيش في الدول العربية .

ومن الطبيعي أن ينظر الوطنيون العرب إلى الدولة الأموية نظرة إعجاب وإكبار ، رغم ما شاب هذه الدولة من أمور شوهت صورة الحكم فيها ، ومن ذلك ما ورد في المصادر الكلاسيكية من انحراف الحكم منها عن الطريق السليم باستثناء الخليفة عمر بن عبد العزيز .

وتطلّع القوميّين الآن إلى إنشاء دولة مماثلة للدولة الأموية جعلهم يعيدون النظر في المصادر الكلاسيكية ويحلّلونها تحليلاً علمياً حديثاً. وإعادة النظر هذه تعتمد على مبدأ الاعتراف بأن معظم المصادر الكلاسيكية قد ألّفت في عصر الحكم العباسي، أي بعد انتصار العباسيين على الأمويين، ولهذا فلا عجب أن تحمل أغلب هذه المصادر في طياتها نزعة سلبية تجاه الدولة الأموية. وقضية إعادة النظر هذه التي ظهرت مع بداية هذا القرن ما زالت تأخذ مجراها حتى الآن. فالمؤرخ المعاصر الدكتور صلاح الدين المنجد - وهو سوري الأصل - يقف موقف المتحفّظ تجاه النتائج التي توصل إليها البحث الحديث حول الدولة الأموية، ويظهر هذا التحفظ واضحاً في مقدمة كتابه «معجم بني أمية» حيث قال:^١

ما يزال تاريخ الأمويين مجهولاً في كثير من نواحيه، غامضاً في كثير من جوانبه. ولم يُدرس الأمويون، حتى اليوم، دراسة عميقة شاملة فيها إنصاف وتجرّد، رغم ما كان لدولتهم من شأن كبير في تاريخ الإسلام. والسبب في ذلك يعود إلى أمور:

الأول: أن أعداء الأمويين، على اختلافهم، طمسوا الكثير من أخبارهم أو أنفوها.
الثاني: أن ما وصل إلينا من أخبارهم مُبَعَّرٌ في مئات من المصادر المختلفة، لم يُجمع.
الثالث: وأن هذه الأخبار، فيها الكثير مما افتعله أعداؤهم ونسبوه إليهم وخاصة أيام العباسيين. ولم ينشط أحدٌ لنقد هذه الأخبار وتبيان الصحيح من الزائف الباطل.

وإذا قَبَلْنَا وجهة نظر الدكتور صلاح الدين المنجد فعلياً ألا نغفل أن المؤرخين والكتّاب العرب في القرن العشرين قد بذلوا مجهوداً كبيراً للبحث في تأريخ صدر الإسلام وتأريخ الحكم الأموي. وقد عمد هؤلاء المؤرخون والكتّاب العرب إلى تيسير وسيلة اطلاع المواطنين على هذا التأريخ وفهمهم له. وقد كُتِبَتْ بعض هذه البحوث بطريقة علمية على مستوى عال، وبعضها الآخر كتب بطريقة شعبية سهلة فظهرت على شكل روائي، ومنها ما كان يميل إلى تقوية حزب محدّد أو مُساندة مذهب معين أو أيديولوجية خاصة، أي أنها لم تكن تقوم على مبدأ الحياد. وبِغَضِّ النظر عمّا إذا كانت هذه البحوث تقوم على أسس علمية صحيحة أم لا، فعن طريق هذه البحوث الحديثة نستطيع فهم العقلية الفكرية للعرب في وقتنا الحاضر.

وإذا كنّا نهدف إلى فهم العقلية العربية في العصر الحالي، فعلياً أن نتتبّع المناقشات الحادة واختلاف وجهات النظر التي أثّرت في بداية هذا القرن - والتي ما زالت تدور حتى يومنا هذا - في الصحف والمجلات والكتب العربية عن الدولة الأموية. وكثيراً ما تُلقَى هذه الآراء المختلفة الضوء على الدوافع الحقيقية التي تكمن وراء تلك المناقشات. ولقد أخذت هذه السلسلة من المناقشات تشتد عام ١٩٠٥، إثر تبادل خطابات بين جرجي زيدان، مؤلف كتاب «تاريخ التمدن الإسلامي»، وبين الكاتب السوري رفيق العظم، مؤلف كتاب «أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة».

ويعتبر رفيق العظم من الرواد المناضلين من أجل استقلال العالم العربي عن الدولة العثمانية، وقد عاش في القاهرة، مثل جرجي زيدان اللبناي الأصل. وقد نُشِرَ الخطابان المتبادلان بين الرجلين عن دور الأمويين في تاريخ العرب والإسلام عام ١٩٠٥ في عدّدَي أكتوبر ونوفمبر من مجلة «الهلal» الشهيرة، وهي المجلة التي كان يصدرها جرجي زيدان في القاهرة. وقد عولجت في هذا الحوار التاريخي مسائل هامة ما زالت تلعب دوراً كبيراً في المناقشات الحديثة التي تدور حول تاريخ صدر الإسلام. وقد انتقد رفيق العظم جرجي زيدان في خطابه الذي بعث به إليه، وذلك بعد أن أعرب له وكتبابه عن الاحترام والتقدير، وأخذ عليه طريقة معالجته للدولة الأموية في الجزء الرابع من كتابه «تاريخ التمدن الإسلامي». وفيما يلي مقتطفات مما وجّهه رفيق العظم لجرجي زيدان من نقد:^٢

^١ معجم بني أمية لصلاح الدين المنجد (بيروت، ١٩٧٠) ٢ مجلة الهلال (شهر نوفمبر، ١٩٠٥): ١٠٤-١٠٦ ص: «ه».

... إكتارك من جمع مثالب الأمويين ودولتهم العربية ، لا سيما في الجزء الرابع من « التاريخ » ، حيث يرى القارئ أن القسم المختص منه ببني أمية عار عن مآثر القوم إلا فيما لا يشكرون عليه ، كأنما هو خاص بمثالبهم فقط.... فغلوا بني أمية بالعصبية العربية مثلاً إنما هو خلُقٌ طبيعي فيهم متأصل في العرب بتأصلهم في البداوة ، ولم يستأصل الإسلام جذوره من نفوس القوم إلا بعد اختلاطهم بالأمم اختلاطاً مصاهرة ونسب . يضاف إلى هذا أن الدولة يومئذ كانت دولة فتح وتأسيس ، وتكاد الخشونة لا تنفك عن دول الفتح إلا في أرقى عصور الاجتماع لهذا العهد ، بل إنه ليس في الوجود دولة أو شعب يتنزهان عن الشوائب ، ولكن جرت العادة أن أمثال هذه الشوائب تأتي متفرقة في تاريخ الدول والشعوب الذي يتخلله كثير من المآثر المشكورة والأعمال الجليلة ، فلا تظهر في المظهر الذي تظهر به فيما لو انفردت شوائبها بكتاب مخصوص ، كما ظهر الأمويون في « تاريخ التمدن الإسلامي » . ولا يذهبن بك الظن إلى أني بكلامي هذا أتشیع للأمويين : كلا ، فإني أعتقد أن دولتهم هي الدولة الأولى التي قضت على أمل المسلمين السياسي وتركتهم يتخبطون في ظلمات الظلم والتقهقر إلى اليوم ، كما تشهد بهذا فصولي الكثيرة في « أشهر مشاهير الإسلام » . وإنما أريد تنبيهك إلى أنك بمقالتك في التشهير بهم من جهة تعصبهم للعرب وسوء إدارتهم في الحكم لم تنصفهم من جهة كونهم قوماً ناشئين ودولةً فاتحة ، ومهدت سبيل الظن في أنك منحازاً لغير العرب ، مع أنك منهم ، ولذا أطريت الدولة العباسية لأنها أعجمية أكثر مما هي عربية ، وذهبت إلى أن الفضل في رقيها العلمي والمدني راجع إلى غير العرب

وكان مما رد به جرجي زيدان على هذا النقد ما يلي :^٣

أما مثالب الأمويين ، فلا أراني مخطئاً في إيرادها ، بل أرى إيرادها واجباً علي ، بالاعتماد على ثقات المؤرخين على الكيفية التي تحدتتتها في « تاريخ التمدن » . فالقوم كانت لهم هذه المعائب ، ولا بد من ذكرها خدمةً للتاريخ . فهل يصح الإغضاء عنها لحجود كوننا عرباً أو ننسب إلى العرب ولأن الدولة الأموية عربية ؟ وهل ينبغي أن نلتبس لتعصب الأمويين للعرب واحتقار سائر الأمم وارثكاب ما ارتكبه في هذا السبيل عذراً بأن دولتهم بدوية لا تخلو من شائبة الغلظة وأن الخلق الطبيعي في الإنسان لا يؤاخذ عليه بقدر ما يؤاخذ على الخلق المكتسب ؟...

وإذا أردنا أن نتساءل الآن عن العلاقة التي تربط هذه المناقشات الدائرة والوضع الراهن ، فقد تُرشدنا إلى ذلك ملاحظة وردت في مقدمة كتاب للعالم محمد رشيد رضا ، جمع فيه انتقادات لمؤلفين موجهة ضد جرجي زيدان . ولا يفوتنا بهذه المناسبة أن نذكر أن رشيد رضا كان صديقاً لرفيق العظم .^٤ وأهم جزء من هذا الكتاب — الذي ظهر في القاهرة عام ١٩١٢ — هو ذلك الجزء الذي اشتمل على النقد العنيف للشيخ شبلي النعماني العالم الهندي المسلم ضد كتاب « تاريخ التمدن الإسلامي » لجرجي زيدان . وقد ذكر رشيد رضا في مقدمة كتابه ما يلي :^٥

هذا وإننا نرجو أن يكون لظهور هذا الانتقاد في هذه الأيام فائدة وراء فائدة تمحيص التاريخ وحمل صاحب « تاريخ التمدن الإسلامي » على التروي والتدقيق فيما يكتبه بعد في تاريخ الإسلام ، تلك الفائدة المرجوة هي أن يترجم هذا الانتقاد باللغة التركية كما تُرجم التاريخ المنتقد ، فيكبح من جماح دعاة العصبية التركية الذين استعانوا بنشر ترجمته بلغتهم على تحقير العرب ، وانتقاص مدنيتهن ، وغمط حضارتهم ، وتفضيل الأعاجم عليهم ، فكادوا يولدون بدم العرب عصبية عربية ، بإزاء ما رفعوا قواعده من العصبية التركية .

ولسنا هنا في حاجة إلى الإفاضة فيما أبداه رشيد رضا من مخاوف تجاه تزايد حركة الشوفينية أي العقيدة الطورانية بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩ ؛ أما والحالة هذه فإن قادة النهضة العربية كانوا يرون أن ظهور مؤلف كهذا يعرض فيه عصر من أزهى عصور الحكم العربي بهذا المظهر السيئ لحو خطر كبير على الأمة العربية وعلى كيانها .

^٣ المصدر السابق : ١٠٨-١١٠ .
^٤ انظر كتاب رشيد رضا : كتاب انتقاد تاريخ التمدن الإسلامي ، لشمس العلماء العلامة الشيخ شبلي النعماني ، ويليهِ (...) (مطبعة المنار ، القاهرة ، ١٣٣٠ = [١٩١٢]) . ومن الجدير بالذكر أن النقد الذي وجهه شبلي النعماني قد نشر قبل ذلك في مجلة المنار (المجلد ١٥ ، ١٩١٢) .
^٥ كتاب انتقاد تاريخ التمدن الإسلامي : ٧-٨ .

وكما هو معروف ، فإن الحركة الداعية إلى إحياء القومية العربية دخلت بعد نهاية الحرب العالمية الأولى مرحلة جديدة . وقد اتسمت هذه الحركة بالميل إلى النزعة العلمانية في كل نواحي الحياة الاجتماعية ، بما في ذلك مجال التربية . أما في مجال كتابة التاريخ ، فيظهر بوضوح الميل إلى التفريق بين وجهة النظر العلمانية ووجهة النظر الدينية تجاه التاريخ العربي . فنجد في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين اهتماماً متزايداً بالتاريخ العربي قبل الإسلام .

وهذا الاهتمام بتاريخ ما قبل الإسلام ليس هدفه المقارنة بين حالة العرب قبل الإسلام وبعده فحسب ، بل هدفه بيان أن التاريخ العربي قبل ظهور الإسلام وبعده هو تاريخ متصل . أما فيما يخص التاريخ العربي الإسلامي ، فيتضح منه اهتمام المؤرخين الشديد بالعلاقة بين ارتفاع شأن الدولة الأموية وانحطاطها . ويلاحظ أن الاهتمام بالدولة الأموية لم يكن بنفس القوة في كل جزء من أجزاء الوطن العربي ، كما أن التعاطف مع هذه الدولة ما زال يختلف في عصرنا الحاضر من دولة إلى أخرى .

وعلى العموم فإن الاهتمام بالتاريخ الأموي كان كبيراً جداً في الشام ، أي في سوريا ولبنان وفلسطين ، بالمقارنة بما كان عليه في المغرب العربي أو في مصر . وإذا كان الاهتمام بالتاريخ الأموي في مصر والمغرب العربي أقل منه في الشام ، فيجب ألا ننسى مع ذلك رثاء الشاعر المصري أحمد شوقي لهذه الدولة ، وكثيراً ما كان يقتبس هذا الرثاء للاستشهاد به عليها .^٦ هذا بالإضافة إلى مؤلفات أخرى كثيرة من الأدب المصري المعاصر .

ولهذه الظاهرة - أي ظاهرة الاهتمام بالتاريخ الأموي في الشام - عوامل كثيرة ، أهمها أن سوريا ظلت تحتفل بذكرى الدولة الأموية وعاصمتها دمشق لقرون طويلة ، وإن كانت هذه الاحتفالات قد اتسمت بنزعة معينة نحو الأمويين . ولا عجب أن نجد أن تحمس بعض كتّاب الشام للأمويين في القرن العشرين قد أدى بهم إلى المبالغة وإلى تبني آراء متطرفة في أمور قامت بها هذه الدولة في تاريخ العرب بوجه خاص وتاريخ العالم كله بوجه عام . وكان من الطبيعي أن يقدّموا التغني بأجداد الأمويين على التغني بأجداد العباسيين أو الفاطميين ، إذ كان هدفهم من ذلك هو تربية شباب الشام وبث روح الحاسة للقومية العربية فيهم . وذهب الأمر بهم إلى أبعد من ذلك ، حتى أن أحد كتّاب العرب القوميين خاطب قراءه السوريين بقوله : « يا أبناء بني أمية وأبناء معاوية والوليد » ، وصدّر كتابه عن الدولة الأموية في الشام بإهداء لهم (أي للأمويين) . ذلك المؤلف هو أنيس زكريا النصولي ، وهو لبناني الأصل ، ومن خريجي الجامعة الأميركية في بيروت ، وقد طبع كتابه هذا في بغداد سنة ١٩٢٧ ، عندما كان يعمل هناك مدرّساً للتاريخ .^٧ وقد أحدث نشر هذا الكتاب في بغداد أزمة سياسية أدت إلى ظهور الاحتجاجات الطلابية المساندة للنصولي في بغداد ، وذلك لأول مرة في تاريخ العراق الحديث . ومن يهّمه أن يعرف الدوافع التي كانت كامنة وراء هذه الأزمة وكيفية تطورها ، فعليه أن يطلع على المؤلفات المتعلقة بهذه القضية لبعض كتّاب العرب ، ومنها مذكرات الأستاذ ساطع الحصري التي يتحدث فيها عن حياته في العراق ، وفي المجلد الأول منها بالذات معلومات وافية ، وإن كان يبدو واضحاً في كتابته شيء من التحيز .^٨ وبمناسبة ذكر قضية النصولي ونتائجها يقول المؤرخ العراقي عبد الرزاق الحسني في كتابه « تاريخ الوزارات العراقية » :^٩

بين الأمويين والهاشميين عداوة قديمة يرتقي تاريخها إلى ما قبل الإسلام ، واستيفاء البحث عنها يخرجنا عن موضوع الكتاب ، ويضطرنا إلى البحث عن سِدانة الكعبة ، وقصّي ونزاعة ... الخ . وقد بقيت (الشام) أموية بحجة على الرغم من العهود التاريخية التي مرت فيها ، وكانت مختلفة في جوهرها ، وبقي العراق متمسكاً بالهاشميين

^٦ راجع كتاب دول العرب وعظماء الإسلام لشوقي (القاهرة ، ١٩٣٣) : ٧٣-٧٧ ، وكتاب شوقي : شعره الإسلامي لماهر حسن فهمي (مطبعة المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٩) : ١١٥ وما يليها .
^٧ W. Ende, Arabische Nation und islamische Ge- (١٩٦٥) : ٨٤ : ٢ .
^٨ انظر كتاب مذكراتي في العراق لأبو خلدون ساطع الحصري (بيروت ، ١٩٢٧) : ١ : ٥٥٧-٥٥٥ .
^٩ تاريخ الوزارات العراقية (الطبعة الثالثة ، صيدا ، ١٩٦٥) : ٨٤ : ٢ .

تمسكاً وثيقاً ، وصار الشامي إذا بحث في موضوع الدولة الأموية حكّم العاطفة في كتابته ، وإن مسّ عواطف غيره

ونعود الآن إلى أسباب التطلع إلى الدولة الأموية والإعجاب الشديد بها ، وكلاهما بلغ ذروته في الشام في أوائل القرن العشرين ، وخاصةً بعد نهاية الحرب العالمية الأولى . وفي رأي شخصياً أن الحياة الفكرية في سوريا قد تأثرت تأثيراً كبيراً بأصدقاء عالم ديني كبير في دمشق وبتلاميذه وهو الشيخ طاهر الجزائري .

ويُعدّ الشيخ طاهر الجزائري من رواد الحركة السلفية في الشرق العربي . أما كتاباته فكانت قليلة ، وأما حلقاته الدراسية فقد كان لها تأثير كبير في نهضة القومية العربية . وعلى من يهمه معرفة المزيد عن هذه المدرسة أن يطلع على كتاب الأستاذ عدنان الخطيب الذي نُشر في القاهرة سنة ١٩٧١ بعنوان « الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام وأعلام من خريجي مدرسته »^{١٠} . أما رأي الشيخ طاهر في تاريخ الدولة الأموية فمن الصعب استنتاجه مباشرة من مؤلفاته ، لأنه قلماً كتب في موضوعات تاريخية ، غير أننا نستطيع أن نلمس رأيه ذاك بوضوح في ما كتبه أصدقائه وتلاميذه عن هذا الموضوع . وهناك نشعر أنه كان متأثراً بمؤلفات ابن تيمية ومقدمة ابن خلدون ، وكان مقتنعاً بأن العباسيين وغيرهم قد جعلوا من الدولة الأموية صفحة سوداء في تاريخ العرب والمسلمين .

ومن تتلمذ على الشيخ طاهر الجزائري واشتهر في العالم العربي رفيق العظم المذكور سابقاً ، وكذلك محمد كرد علي ومحب الدين الخطيب ، وكلاهما من أهل دمشق . أما عن نشاط الأستاذ محب الدين الخطيب وجهة نظره في إعادة كتابة تاريخ الأمويين فنحيل القارئ على التعليقات المفصلة التي وردت في كتاب « العواصم من القواصم » لأبي بكر ابن العربي ، وهو كتاب نشره الأستاذ محب الدين في القاهرة ، كما نحيل القارئ على مقالاته العديدة المتعلقة بهذا الموضوع ، وقد طبعت في مجلتين كان ينشرهما في القاهرة ، وهما مجلتي « الفتح » و « الزهراء » . ونشاط الأستاذ محب الدين الخطيب برهان على أن هذا التيار الذي اتجه إلى كتابة التاريخ بغية إنصاف الأمويين لم يكن قاصراً على أنصار الحركة العلمانية (اللائيكية) بل اكتسب أنصاراً آخرين في جناح معين من الحركة السلفية ، وإن اختلفت آراء أعضاء هذا الجناح اختلافاً يبيّن عن آراء الحركة العلمانية ؛ ولا ريب أن المعارك التي دارت بين محب الدين الخطيب ومن يسانده وبين طه حسين وأنصاره مشهورة بما فيه الكفاية في تاريخ مصر الفكري ، فلا حاجة للتعرض لها مرة أخرى هنا .

ويتضح نشاط محمد كرد علي في سبيل إعادة النظر في التاريخ الأموي من كتابه « خطط الشام » ومن محاضراته عن مميزات بني أمية ، وهي محاضرة ألقاها سنة ١٩٣٩ في جامعة دمشق ، ثم نُشرت في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق^{١١} . وقد كانت هذه المحاضرة دفاعاً مجيداً عن بني أمية في الجاهلية والإسلام ، انتقد فيها كرد علي كل من خرج على بني أمية في الماضي والحاضر ، وكل من لفتق التهم عليهم . ويجدر بهذه المناسبة أن نذكر أن محمد كرد علي كان رئيساً للمجمع العلمي العربي بدمشق منذ سنة ١٩٢٣ ، كما عمل لمدة طويلة رئيساً لتحرير مجلة هذا المجمع ، ومن الطبيعي أن يساعده هذا المنصب الهام في الحياة الثقافية على أن تجد كلماته التي تشيد بدور الأمويين في التاريخ قبولاً حسناً لدى المثقفين العرب في الشام أو في غيرها من البلدان العربية . غير أنه — من ناحية أخرى — لم يحتمل خصوم كرد علي أن تلقى كلماته هذا القبول ، فاتهموه بأنه يستغل منصبه الكبير في نشر آرائه الخاصة . ومن أوائل الذين رموه بهذه التهمة بعض علماء الشيعة من العراق ومن الشام ، ومن بينهم من كان هو الآخر عضواً في المجمع العلمي . وبعض هذه الردود والانتقادات الموجهة ضد محمد كرد علي كانت تنسم بحدة الغضب ،^{١٢} وهي لا تعجب من يعرف نظرة الشيعة إلى الأمويين . ومثالاً على ذلك نذكر كتاب العالم الشيعي عبد الحسين شرف الدين — وهو من جنوب لبنان — « الفصول المهمة في تأليف الأمة » ، وقد نشرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩١١ أو ١٩١٢ . وقد أضاف شرف الدين إلى الطبعة الثانية من

^{١٠} الطبعة الأولى ، المطبعة السلفية ، ١٣٧١ . ^{١٢} راجع أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين (الطبعة الرابعة ،

^{١١} المجلد ١٦ (١٩٤١) : ٤٠٨-٤٢١ و ٤٥٠-٤٥٥ . بيروت ، ١٩٦٠ (١/١ : ١٧٩-١٩٨ و ٢٠٥-٢٢١) .

هذا الكتاب التي نشرت سنة ١٩٢٨ فصلاً جديداً شكاً فيه ممن أطلق عليهم اسم «نواصب هذا العصر»، ومن بين تلك الأسماء يذكر اسم محمد كرد علي وأنيس زكريا النصولي.^{١٣}

وقد واجه المثقفون الشيعة الذين عملوا من أجل التقريب بين المذاهب ومن أجل القومية العربية آنذاك دون شك صعوبات كثيرة، وبذلك اعترف العالم السنّي الشيخ عبد القادر المغربي، الذي كان أحد أعضاء المجمع العلمي بدمشق عام ١٩٢٨، عندما رد على نقد الكاتب الشيعي محمد علي الحوماني في مجلة «العرفان».^{١٤}

ومن الجدير بالذكر أن المشكلات التي نشأت عن هذه الأزمة التي قامت بين الشيعة وبين دعاة القومية العربية قد خفت حدتها كثيراً بعد الحرب العالمية الثانية لأسباب مختلفة، منها أن التحمّس الزائد للأمويين الذي كان منتشرًا في فترة معينة بين القوميين العرب من أهل السنة أخذ يقلص رويداً رويداً. ونلاحظ أن دخول الآراء اليسارية — مثلاً — في القومية العربية كان له أثر واضح في الحكم على الأمويين. والمعلوم أن الذين يميلون من العرب إلى مذهب الاشتراكية العربية يدون إعجابهم بالصحابي الزاهد أبي ذر الغفاري.^{١٥} وقد كان أبو ذر منتقداً لبعض أعمال عثمان بن عفان وواليه على الشام معاوية بن أبي سفيان، فنظر أنصار الاشتراكية العربية إلى الأمويين على أنهم يمثلون الرجعية والطغيان في التاريخ العربي الإسلامي. ومن الأسباب الداعية إلى تراجع الاهتمام بالتاريخ الأموي أيضاً أن الآراء التي تقدم بها بعض المستشرقين والمؤرخين العرب عن الأمويين في النصف الأول من القرن العشرين أصبحت محل مراجعة علمية. ونرى من المستشرقين ومن المؤرخين العرب في الوقت الحالي من عاد فعدل عما قاله من قبل، أو عما قاله بعض المتخصصين في الشرق والغرب فيما يتعلق ببعض تفصيلات التاريخ الأموي. ونذكر هنا مشكلة الموالى ودورهم في سقوط الدولة الأموية. وإذا كنا نودّ التعرض لهذه المشكلة، فعلينا أولاً أن نتحدث عن تأثير مؤلفات بعض المستشرقين في التاريخ العربي على الكتاب والمؤرخين العرب في القرن العشرين، ولكنني بسبب ضيق المكان أترك الحديث عن تأثير مؤلفات المستشرق البلجيكي لامنس (Lammens) عن الأمويين جانباً.^{١٦} وأكتفي بالتنويه بأن لامنس لم يكن متحمساً وحسب لهذه الأسرة بل متعصباً لها فيما كتبه عنها. وقد لاقت مؤلفاته هذه قبولاً حسناً لدى بعض المؤرخين العرب، وخاصة من كان منهم في الشام. أما مشكلة الموالى فلا غرو أنها من أهم المسائل التي تعرض على بساط البحث عند أي مناقشة عن الدولة الأموية. ونلاحظ أن تأثير المستشرقين في معالجة العرب لهذا الموضوع كان واضحاً جداً.^{١٧}

ويجدر بنا الآن أن نعود إلى ما ذكرناه في بداية هذه المقالة من أن كل المؤلفات التاريخية هي مرآة تنعكس عليها الأحوال الاجتماعية والبيئة الثقافية للعصر الذي كتبت فيه. وبناء على هذا المبدأ نستطيع أن نقول إن المستشرقين — كغيرهم من المؤلفين في كل أنحاء العالم — تتأثر نظرتهم إلى التاريخ بالأحوال السياسية والثقافية التي يعيشون فيها. ومن المعلوم أن الاتجاهات والنظريات القومية كانت تسيطر على الفكر السياسي والتاريخي في أوروبا في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ومن بينها تيارات عنصرية أي اتجاهات عنصرية في تفسير التاريخ. فلا عجب إذن أن تؤثر هذه التيارات العنصرية على أفكار بعض المستشرقين. ومما يجدر ذكره أن جوبينو (Gobineau) الذي ألف كتابه المشهور عن التفاوت بين العناصر البشرية كان نفسه متخصصاً في تاريخ أديان الشرق.

^{١٦} Kamal S. Salibi, "Islam and Syria in the Writings of Henri Lammens," in Bernard Lewis and P.M.Holt (eds.), *Historians of the Middle East*. (London 1962), 330-42.

وراجع أيضاً: W. Ende, *Arabische Nation und islamische Geschichte*, 185-88.

^{١٧} المصدر السابق: ٢٣٣-٢٦٠.

^{١٣} انظر الطبعة السادسة (النجف، ١٩٦٧): ١٤٨. ^{١٤} راجع خطاب الشاعر محمد علي الحوماني ورد عبد القادر المغربي عليه في مجلة العرفان (صيدا)، المجلد ١٥: ١١٥٧-١١٦٠.

^{١٥} Ulrich Haarmann, "Abū Dharr — Muḥammad's Revolutionary Companion," *Muslim World*, 68 (1978), 285-89; W. Ende, *Arabische Nation und islamische Geschichte*, 210-11.

وقد دخلت النظرية العنصرية في الفكر العربي الحديث عن طريق الترجمة من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية ، وبسبب ما اقتبس من عبارات ونبد من كتب المستشرقين بغرض الاستشهاد في كتب المؤرخين العرب . وقد أثرت هذه النظرية العنصرية على الباحثين عند معالجتهم لمشكلة الموالي والمشكلات الأخرى المتعلقة بها ، ومنها الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة الأموية .

ويميل كثير من المؤرخين العرب إلى الرأي القائل بأن سياسة الأمويين تجاه الموالي وسياستهم في التمييز العنصري في كل من العراق وإيران كان هو السبب الرئيسي في سقوط دولتهم ، ولكن يعارضهم في هذا الرأي بعض المؤرخين في بداية هذا العصر ، ومنهم الشيخ شبلي النعماني الذي سبق الحديث عنه ، وقد قال في نقده لكتاب جرجي زيدان ما يلي :^{١٨}

ويظهر مما مرّ عليك أن الموالي كانوا أيام بني أمية بأعلى محل من الشرف والمكانة ، وكانت العرب تدعن لهم وتقدمهم وتفتدي بهم وترفع من شأنهم ، فهل يصح قول المؤلف بعد ذلك إن الموالي وأبناء الإماء كانوا في عصر بني أمية مردولين ساقطين يزدرى بهم ولا يقام لهم وزن ، وكان العرب وبنو أمية يعاملونهم معاملة العبيد ؟

ويميل بعض المؤلفين العرب إلى الاعتقاد بأن سياسة التمييز بين العرب المسلمين والموالي هي حقيقة تاريخية ولكنها مجرد رد فعل للعصبية القومية الأعجمية وقد لازمت الموالي من بداية الأمر . وسوف أوضح أن لهذه المشكلة علاقة بطبيعة الدعوة العباسية . تنتقل من ذلك إذن إلى مسألة تقويم الدولة العباسية من وجهة نظر القومية العربية . ومن الجدير بالذكر أنه يوجد في الأدب العربي الكلاسيكي ملاحظات لبعض المؤلفين العرب عن التباين بين الدولتين الأموية والعباسية ، ومن ذلك قول الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » : « دولة ولّد العباس أعجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية » .

ولم يكتف المؤرخون العرب بما أخذوه عن الجاحظ وغيره من الكتاب الكلاسيكيين دعماً لرأيهم ، بل تعدوا ذلك إلى الأخذ بوجهات نظر المستشرقين في هذا الشأن . ومن كتب المستشرقين التي كان لها أثر ملحوظ عند العرب في تناول الثورة العباسية بالتحليل كتاب المستشرق الهولندي فان فلوتن (van Vloten) الذي نشر سنة ١٨٩٤ ، وقد ترجم هذا الكتاب^{١٩} إلى اللغة العربية المؤرخ المصري حسن إبراهيم حسن وجعل عنوانه « السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية » .

نظر فان فلوتن إلى الأزمة السياسية في نهاية العصر الأموي على أنها أزمة بين الحكام العرب وبين السكان الإيرانيين ، ووافقه في هذا الرأي كثير من المؤرخين العرب في القرن العشرين ، خصوصاً عندما رأوا أن معظم المستشرقين المتخصصين في هذه المسألة يميلون إلى هذا الاتجاه ، ومنهم رينان (Renan) وفون كريمير (von Kremer) وفيلهاوزن (Wellhausen) وغيرهم . وأحياناً ما عُرِضت الثورة العباسية في مؤلفات الكثير من المؤرخين والكتاب العرب في القرن العشرين على أنها في جوهرها ثورة قومية إيرانية موجهة ضد السيادة العربية ، بل وأكثر من ذلك : فقد عرضت على أنها موجهة ضد الإسلام والمسلمين ، وأن العباسيين قد قاتلوا قتالاً مريراً بمساعدة الموالي الإيرانيين من أجل الاستيلاء على الخلافة ، وقد نجحوا في ذلك ، وإن كان هذا النجاح على حساب العرب والعروبة . وقد رأى هؤلاء الكتاب العرب أن هناك عوامل جعلت أهل خراسان - وهم ، كما يزعمون ، من الفرس - يؤيدون دعوة أهل البيت من العلويين والعباسيين (يعني بني هاشم) ، ومن هذه العوامل :

١ - كره الشعب الإيراني للحكام العرب ؛

٢ - حركة الشيعة التي عمل من ورائها - كما يزعمون - الموالي من الفرس .

^{١٨} كتاب انتقاد تاريخ التمدن الإسلامي لرشيد رضا : *Recherches sur la domination arabe, le chiitisme et les croyances messianiques sous le khalifat des Omayyades* ١٣-١٤ ؛ وانظر الملاحظة رقم ٤ .

وقد قبل بعض المؤرخين العرب رأيَ المستشرق دوزي (Dozy) الذي كان يميل إلى الاعتقاد بأن الشيعة تقوم على أساس فارسي ، فقال في ذلك : « فالعرب تدين بالحرية ، والفرس يدينون بالملك وبالوراثة في البيت المالك ... وقد اعتاد الفرس أن ينظروا إلى الملك نظرة فيها معنى إلهي ، فنظروا هذا النظر نفسه إلى علي وذريته » .^{٢٠}

ونذكر هنا أيضاً على سبيل المثال ما قاله الأستاذ أحمد أمين في كتابه « فجر الإسلام » عن الشيعة :^{٢١}

... كان مأوى بلجاً إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد ، ومن كان يريد ادخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزردشتية وهندية ، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته ، وكل هؤلاء يتخذون حب أهل البيت ستاراً يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤها .

وقد أثر هذا تأثيراً واضحاً في تفسير الكتاب العرب للثورة العباسية ضد الأمويين ، ولكن يجدر بنا ملاحظة أن غالبية هؤلاء المؤرخين لم يغفلوا مع ذلك ذكر الأخطاء التي وقع فيها الحكام والولاة الأمويون في معاملتهم للموالي ، وخصوصاً ذكر ما يتعلق بعدم تطبيق مبدأ العدالة الاجتماعية والاقتصادية عليهم مع اعتناقهم للإسلام . وكان من نتيجة ذلك أن انبثقت - كما يزعمون - روح القومية الإيرانية ، وأصبحت سلاحاً قوياً في يد الشعب الإيراني . ولقد سيطر هذا التفسير لطبيعة الدعوة العباسية ولدور العباسيين في تاريخ الأمة العربية مدة طويلة على أفكار المؤرخين في الشرق والغرب وإن كان بعضهم - وقليل ما هم - قد أعرب عن شكه فيه أو في بعضه ، ونذكر على سبيل المثال أن المستشرقين البريطانيين جبّ (H. A. R. Gibb) ولويس (B. Lewis) قد تنبها - خلال دراساتها - إلى دور العرب الفعال في الثورة العباسية .^{٢٢} ولكن الفضل الكبير في تطور شرح الثورة العباسية يعتمد على أبحاث قام بها بعض المؤرخين العرب بعد الحرب العالمية الثانية .

ويضم الرعيل الأول منهم بعض الأساتذة من العراق ونذكر منهم الأستاذين عبد العزيز الدوري وصالح أحمد العلي . ويحدثنا الأستاذ صالح أحمد العلي في مقالة له بأن العرب سكنت القرى في إقليم خراسان كما سكنت بعض المدن بعد تمصيرها ،^{٢٣} ويؤكد الدوري بأن الثورة العباسية لم تنجح بسبب ثقل الضرائب التي فرضت على الموالي .^{٢٤} وقد تبين لي من أبحاث هذين المؤرخين أن العرب في خراسان لم يكونوا كلهم حكاماً أو أصحاب امتيازات أو ذوي سلطة تنفيذية ، بل كان منهم جماعة تقاسم سكان البلاد الأصليين من الإيرانيين دفعَ الضرائب للأستوقراطية الإيرانية المتحالفة مع الحكم الأموي . وساعد اكتشاف بعض المخطوطات المتعلقة بالحكم العباسي ونشرها على إعادة النظر في تاريخ الثورة العباسية ، وخصوصاً منها ما يتعلق بدور العرب غير الرُّحَل والقَبائل فيها .

ومن المؤرخين العرب من خطا خطوة واسعة في إعادة تقويم الدعوة العباسية وأسباب سقوط الأمويين ، نذكر منهم المؤرخ المصري محمد عبد الحفي شعبان الذي نشر كتاباً عن الثورة العباسية باللغة الإنجليزية ،^{٢٥} وكذلك المؤرخ العراقي الدكتور فاروق عمر . وفي رأي الدكتور فاروق عمر - كما أعرب عنه في كتبه ومقالاته - أنه يجب ألا نركز - عند تحليل ظروف الثورة العباسية وأسبابها - على ناحية معينة فقط ونترك النواحي الأخرى ، بل يجب التعرض لثورة العباسيين على الدولة الأموية من جميع نواحيها : الاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية وما إلى ذلك .^{٢٦} وقد نجح الدكتور عمر

^{٢٠} Essai sur l'histoire de l'Islamisme (Paris 1879) ،
^{٢١} وبقارن بكتاب أحمد أمين : فجر الإسلام (الطبعة السابعة ،
 القاهرة ، ١٩٥٥) : ٢٧٧ .
^{٢٢} المصدر السابق لأحمد أمين : ٢٧٦ .
^{٢٣} The Abbasid Revolution (Cambridge 1970) .
^{٢٤} طبيعة الدعوة العباسية (بيروت ، ١٩٧٠) ؛ وراجع أيضاً
 W. Ende, Arabische Nation und islamische Geschichte,
 1950), 80 .
^{٢٥} « استيطان العرب في خراسان » ، مجلة كلية الآداب
 ٢٣ : 257-59 .

في محاولته تطبيق ذلك المنهج على دراساته عن الثورة العباسية ، وردّ في بحثه عن طبيعة الدعوة العباسية على تفسيرات المؤرخين السابقين القائلين بأنها حركة قومية إيرانية ضد الحكم العربي الأموي ، أو بأنها قامت باسم العلويين من آل البيت وأن العباسيين انقضوا عليها واقتطفوا ثمارها . ويستنتج الدكتور عمر خلال أبحاثه بأن الثورة العباسية ضد الحكم الأموي كانت من بادئ أمرها حركة عباسية خالصة ، ظهرت بواجهات عديدة ، ورفعت شعارات مختلفة ، حاولت بها كسب المتدبرين من الحكم الأموي ، فانضم إليها المعتدلون والغلاة والمسلمون وغير المسلمين والعرب وغير العرب ، واستغلت بدرجة كبيرة ظروف القبائل العربية في خراسان . ويؤكد الدكتور عمر أن هذه القبائل العربية كانت القوة الفعالة في الجيش الخراساني الذي قضى على الدولة الأموية بانتصاره عليها . وإن صح ما قاله الدكتور فاروق عمر في تفسيره للثورة العباسية ، فأين الصورة السوداء لسقوط الدولة الأموية التي ظهرت وما تزال تظهر لدى المؤرخين في الشرق والغرب على أنها نكبة للعروبة وللإسلام ؟

وربما عدّل الدكتور فاروق عمر شيئاً من رأيه نتيجةً لبحوثه المستمرة في المصادر القديمة أو تبعاً لنقد قد يكون وجهه إلى مؤلفاته العلمية من المتخصصين في التاريخ . وأياً كانت النتيجة فإن أبحاث الدكتور فاروق عمر وبعض زملائه المؤرخين ممن درسوا الدعوة العباسية في السنوات الأخيرة قد ساعدت على رفع مستوى المناقشة العلمية في هذا الموضوع ارتفاعاً ملموساً ، وأعتقد أن هذا التقدم العلمي من أعظم المكاسب في مجال كتابة التاريخ للعرب في هذا القرن ، وربما عدّ نجاحاً في الجدل المستمر ضد خطر التيارات العقائدية – أو الجزمية – والجمود في كتابة التاريخ ، وذلك يعتبر نجاحاً أيضاً لمقاومة التقليد الأعمى لآراء السابقين من المستشرقين والمؤرخين العرب ، حيث يعتمد العلم الصحيح في قيامه على إعادة النظر المستمر في النتائج السابقة .

